حظ كُوكُورا

رواية

لمى عمر جمجوم

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

حظ کوکورا

لمى عكر جمجوم

حظ كوكورا

مراجعة نحوية وإملائية أولية:
ربا عبيد

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بسم الله الرّحمن الرحيم

الطبعة الأولى: حزيران/يونيو 2019 م - 1440 هـ

ردمك 978-614-02-3716-2

جميع الحقوق محفوظة

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

تصميم الغلاف: **ياسر عبد اللطيف**

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف (+9611) 785107

الطباعة: مطابع **الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف (+9611)

إهداء

إلى

كلّ من ألهمني لكتابة هذه الكلمات

والتجرؤ على الكتابة دون حسابات مسبقة

شكر خاص للروائي حجي جابر

ولكل من قرأ بعضاً من حظ كوكورا قبل النشر

"تختارُني الكتب لأحيَاها

فـ القراءة لا تكفيها"

يوتا

أزهار الكرز (الساكورا) هي الحياة،
الموت والتجدد

تجهز الضباط لإلقاء القنبلة الثانية على مدينة كوكورا.

"سننهي الحرب، ونجبرها على الاستسلام" ساعات من التحليق حول كوكورا.

"لن نتمكن من رؤية الهدف، سنتجه إلى ناجازاكي".

أزعجت صفارات الإنذار مدينة ناجازاكي. صفاراتٌ محت أصوات الخطوات الهاربة إلى ملاجئ المدنيين. طائرة تحلق في السماء، كأنها ملك الموت آتياً لحصدِ الأرواح عشوائياً.

الساعة 10:02 أُلقيت القنبلة.

"تعلن الإمبراطورية استسلامها اليوم دون أي شروط" أُذيع في قنوات الراديو.

كوكورا، هذه المدينة المحظوظة هي مدينته بعد أن أنجاها الطقس من القنبلة الذرية.

فهل يُلقى على يوتا حظ مدينته؟

كوكورا، المستودع الصغير. كأنها سمّيت من أجله. مستودع العوالم في انتظاره.

***

قرر السير في شوارع كوكورا دون هدف، فاليوم هو يوم عطلته الأسبوعية.

ماشياً على هون، يميناً وشمالاً مدركاً نفسه أمام بوابة خشبية. عمودان خشبيان متوازيان تربطهما من الأعلى خشبة ذات أطراف منحنية، وكأنها تنام هناك منذ زمن طويل.

خشبٌ ذو لونٍ برتقالي محمّر. بينما تملأ المكان رائحة شجر الشاي من حوله. "تشبه البوابة. ما قصتها يا ترى؟" سأل يوتا نفسه.

أكمل طريقه عبر البوابة، مُترفق الخطو وكأنه يتسبب بتلك الخدوش على الطريق الصخري. صخورٌ مربعة الشكل، غير متساوية متراصة بجانب بعضها البعض. تخترقها بعض الأعشاب الصغيرة باحثةً عن أيّ مخرجٍ إلى الحياة.

استرسل يوتا في الخطو مع منحنيات الطريق حتى وصل المزار. انشغل باكتشاف المزار إلى أن تذكر موعده مع جدّه فعاد مهرولاً حتى وصل المكتبة.

دخل المكتبة، ذات الجدران الخشبية بنية اللون، تحيط به الكتب من كل الجهات ككوخٍ صغير يضيق كلما توسّطَته. رائحة الخشب تملأ المكان، بينما لم تترك الرفوف فتحة أملٍ للجدران في أن تُظهر نفسها. كتبٌ متلاصقة جامعةً حنانَ جدّه كله في ذلك الاحتضان، تذكّره بقصص جدّه وحكاياه في ليالي الشتاء، بينما يحتضنه بين طبقات الملابس والأقمشة حولهم.

تتدّرج ألوان الكتب بتناسق على أرفف جدران المكتبة ما بين البني، والأسود، والزيتي وكل الألوان الداكنة. ينظر إلى سقف المكتبة فلا يجد مساحةً ليمدّ بصره في المكان، بينما تتعلق مصابيحٌ زجاجية شفافة على ذلك السقف لتزيد أجواء المكتبة بشيء من الدفء. صمتٌ رهيب، يكسره صوت تلامس الورق مع بعضه البعض. طاولات متفرقة تنتصف المكتبة، تحفّها كراسٍ خشبية بنفس درجة لون الخشب المكتسي كل ما بداخل المكتبة.

تنتشر أرائك فردية في كل ركنٍ فيها، لتخص من يجلس عليها بخصوصية ودفء عند القراءة. ها هو جدّه يجلس هناك على تلك الأريكة في الركن الأيسر من المكتبة. مرتدياً سترة بنية اللون ناعمة الملمس، تحتها قميص أبيض تبرز ياقته من أعلى السترة. واضعاً إحدى ساقيه على الأخرى. متصفحاً كتاباً زيتي اللون، مكملاً هذه اللوحة العتيقة بين الكتب.

"كم تشبهك المكتبة يا جدّي". قال يوتا.

تبادلا أطراف الحديث حتى لمح يوتا كتاباً اسمه "الأمنيات" يهتزّ بطاقةٍ مفرطة على طرف أحد الأرفف. استمر الكتاب في الاهتزاز حتى أُضيئت أحرفه فأنهى حديثه مع جدّه سريعاً وتوجه إليه. حمل يوتا الكتاب بيده واقفاً أمام الأرفف. فتحه.

فسحبه الكتاب من عالمه الواقعي إلى داخل حكاياه.

وجد يوتا نفسه على طريق المزار الذي سار عبره صباحاً. طريقٌ طويل وكثير المنحنيات، في آخره حجر مثبّتٌ عامودياً على الأرض. يشبه الحجر الطريق في انحناء أطرافه، محفور عليه "طريق الوصول إلى المزار، ساندو. وساندو تعني الطريق". رأى يوتا هذه الكلمات فأكمل طريقه إلى الساحة أمام المزار. يتوسط الساحة بيتٌ خشبـي مسقوف بلا جدرانٍ تغطيه. أطراف سقفه حادة من الأعلى، بينما يتدلى من حوافه المطلة على الساحة مصابيح ورقية، بيضاوية الشكل وسكرية اللون، مجوفة ورقيقة تنار ليلاً دون النهار، ومكتوبٌ عليها باللون الأسود أحرفٌ بلغة الكانجي. تتدلى المصابيح من الحواف بشكل متوازٍ بجانب بعضها البعض لتغطي الجزء العلوي من الواجهات الأربع.

بجانب البيت كشك خشبـي في واجهته نافذة صغيرة وخلفه بعض من شجر الغابة، يجلس بداخله بائعٌ شاب يرتدي رداءً قطنياً

أسود واسع الكمين، ويلف وسطه حزام بلون سكري من القماش ذاته. يقف مجموعة من الشبان أمام تلك النافذة الصغيرة.

- شكراً.

قال أحدهم للبائع.

- هيا لنفتح الورق.

قال لأصدقائه.

ورقة بيضاء مستطيلة الشكل وطويلة، تتوسطها بعض الكلمات. فتح الشاب ورقته بكل هدوء.

- ماذا يقول حظك اليوم؟ بشّرنا.

نظر إليه أصحابه بشوق.

- محظوظ. إنني محظوظ.

ابتسم الشاب ابتسامة أظهرت أسنانه الأمامية كلها.

- سأفتح أنا الآن.

قال صديقه، وفتح ورقته بسرعة. لمح المكتوب على الورقة فزمّ شفتيه واستنشق الهواء بعمق؛ ليتغلغل عطر شجر الشاي عبر فمه ورئتيه. استشعر طعم الشاي بفمه دون أن تتغير ملامح وجهه.

- غير محظوظ؟

سأله صديقه.

هزّ رأسه موافقاً، واتجه إلى جدار خشبـي رقيق بجانب الكشك الخشبـي. جدار ممتلئ بأوراق معقودة على أرفف متوازية من الخشب الطويل. أخذ الشاب يعقد ورقته فأصدرت صوت حفيف عند ربطها بمحاذاة الأوراق الأخرى على الرف.

سمع يوتا صوت سعالٍ يقترب. التفت. فوجد نفسه واقفاً أمام الكتب في مكتبة جدّه من جديد. تصفّح الكتاب.

"كيف أعود؟ كيف أعود إلى هناك؟". أدخل رأسه بين الصفحات، ضرب برأسه الورق، لكن دون جدوى.

حمل كتاب "الأمنيات" ثم جلس إلى إحدى الطاولات. وكانت هناك فتاة تجلس وحيدة منغمسة في قراءة كتاب، تغطي شعرها بقطعة قماش رمادية عليها وردة حمراء ذات أوراق صفر وخضر، بدا القماش رقيقاً جداً كصاحبته، يربط رأسها من الخلف، بينما تنسدل خصلات شعرها القصيرة عسلية اللون على جبهتها، معلنة تمردها على القماش وصاحبته. انتبه يوتا لوجودها، لكنه كان منشغلاً بالتفكير في كيفية العودة إلى داخل الكتاب من جديد، حتى رمى رأسه بين صفحات الكتاب مستسلماً.

رجع يوتا إلى غرفته الصغيرة تلك ببيت جده. وسارع للاستحمام ليمحو آثار يومه العجيب. تساقطت قطرات الماء الساخنة على رأسه، لتُهدئ الضجيج المتراكم داخله. "أيعلقون آمالهم وأمانيهم على ورق!" وبينما يغمض عينيه مستمتعاً بالماء الدافئ لم يتوقف دماغه عن التفكير بذلك الأمر. وكأن مشهد اليوم قد عشش بين طيّات دماغه.

اتجه إلى سريره بعد الحمام الدافئ ورمى نفسه وسط الوسادات البيضاء.

"أيعلقون آمالهم وأمانيهم على ورق!" كانت الجملة تتكرر وتتكرر في رأسه، عالقة كأغنية.

كان قد اعتاد أن يشعر بفراغٍ كبير كلما وجد نفسه مندساً بين تلك الوسادات، إلا أنه قد وجد اليوم ما يشغل تفكيره.

***

تجهز يوتا للذهاب مع جدّه إلى المزار الذي صادفه منذ أيام، مزار ياساكا. إنه المزار الرئيسي في كوكورا.

أمام تلك البوابة البرتقالية انتظر جده.

- يوتا.

تألّق صوت جده متجهاً إليه.

- إنها المرة الأولى التي تأتي بـي إلى هنا. ما الأمر يا جدي؟

- رأيتك البارحة غارقاً في قراءة كتاب "الأمنيات". أعتقد أنك تحلم بالكثير من الأمور، ومن الجيد أن تُلقيها هنا اليوم.

- آه. لكن ما هذا يا جدي؟ أشار يوتا إلى البوابة برتقالية اللون.

- توري، اسمها توري. هي البوابة التي تفصل عالمنا عن عالم الرب، لتُلقي بأمانينا هناك.

- إذاً بوذا موجود في الداخل؟

- لا، بوذا موجودٌ في المعابد. أما نحن ففي مزار.

- وما الفرق إذاً؟

- المعبد، هو للديانة البوذية فأمنياتهم تُلقى على عاتق بوذا. أما المزار، فهو لدين الشنتو، وهي ديانة الإيمان بالطبيعة والأجداد. وفي الشنتو هناك آلهة كثر. لكل شيء طبيعي إله. إله البحر، إله الجبال والكثير من الآلهة. نأتي هنا متأملين، إنها جرعة الشعور بأن الأمنيات ستتحقق إذا ألقيناها هنا.

- هل تؤمن بهذا يا جدي؟ فتح يوتا عينيه الصغيرتين على مصراعيهما.

- لقد فقدنا إيماننا منذ زمن. منذ 1945 عندما استسلمنا في الحرب. كانت قلوبنا معلقة هنا، لكننا خسرنا. خسرنا الحرب وإيماننا في الوقت ذاته. ألا ترى المعابد والمزارات خالية إلا من السيّاح؟

- حتى نحن أصبحنا سياحاً هنا يا جدّي.

تأمل كلاهما الآخر، بصمتٍ شديد. وأكملا طريقهما إلى ركنٍ به أرفف خشبية كتلك التي تُعقد حولها الحظوظ السيئة.

تُعلق هنا قطعٌ من الخشب يكتب الناس عليها أمانيهم. خشبٌ مربع بزوايا محفوفة، لئلا يجرح أصحاب الأمنيات، فاتح اللون، ومطليٌّ بمادة شفافة تجعله أملس ولامعاً.

رآهما يوتا، ذلك الثنائي. مقتربين من الأرفف. بيديهما خشبة ويبدو أنهما كتبا عليها أمانيهما. نظر الثنائي إلى بعضهما وابتسما. فابتسم يوتا أيضاً. تمسك كلاهما بالخيط الخشن داكن اللون المربوط بقطعة الخشب، تتفرع خيوطٌ دقيقةٌ من بين شعيراته المجدّلة. ربطاه معاً وكأن قلبيهما هما اللذين قد رُبطا، وليست القطعة الخشبية.

- اسمها إيما، قطعة خشبية تُكتب عليها الأماني.

ظهر صوت جدّه من الخلف.

التفت يوتا، فوجد جدّه مستمتعاً بمشاهدة الثنائي، وكأنه يعرفهما.

- سنفعل كما يفعلان يا يوتا.

رمقه جدّه بنظرة متشوقة.

أمّا أمنية يوتا، فقد اختلطت هناك بين الأمنيات.

"مـت كتساقط بتلات أزهار الكرز

الجميلة، من أجل الإمبراطور"

يوتا اليوم مهندس يعمل خمسة أيام أسبوعياً، ما عدا يوميّ العطلة الأسبوعية فقط فهما فترة راحة لنفسه. شاب يعيش وحده في شقة صغيرة. جدّه هو آخر من تبقّى من عائلته. كان عاشقاً منذ ثلاثة أشهر، لكنه اليوم يحملُ قلباً مشتاقاً.

اختفت حبيبته عن حياته تماماً كاختفاء البشر عند انفجار القنبلة. اختفوا تماماً، أصبحوا رماداً لا أثر لهم. لكنه مليء بآثارها داخله. قلبه مهجور كالمنزل المهجور، مليء بالأتربة وآثار البشر.

يوتا شابٌ طموح، حياته رتيبة. عاش مع جدّه طوال طفولته حتى بدأ بالعمل، فانتقل للعيش وحده في شقة صغيرة. لم يعش كثيراً من اللحظات الشيقة في حياته. لكنه كان سعيداً مع جده. حتى بُهرَت حياته، وأصبح هناك ما يعيش من أجله. التقى بحبيبته، ولكنها سرعان ما اختفت فعاد إلى الرتابة نفسها. رأى جدّه شيئاً مختلفاً في عينيه من بعد فقدانه لحب حياته، فبدأ يعنيه باهتمام خاص. عنايةٌ لا يمكن أن تكون إلا من جدّه.

كان يوتا متعلقاً بذلك الحدث قبل سنوات. حدث دخوله عبر الكتاب. ومنذ أول دخولٍ له وهو في انتظار دائم.

"لن أذهب اليوم، يمكنني أخذ إجازة مرضية".

دخل يوتا المكتبة، فانتشى برائحة خشبها كما هي دوماً. مرَّر يديه على أحد الأرفف الخشبية مشتاقاً لملمس الخشب المنّعم. أخذ يطوف داخل المكتبة دون معرفة نواياه. تجوّل بعينيه في أرفف المكتبة جميعها متأملاً. لمح اهتزازاً لكتاب وإضاءة أحرفه تماما كالمرة الماضية. ركض إليه. مدّ يديه المرتجفة نحوه. يده البيضاء التي رافقتها الشمس حتى أصبحت قمحية اللون، بأصابعه الطويلة ومفاصلها البارزة. أخذ نفساً عميقاً، وفتحه.

توشك الطائرة على الإقلاع. جدران زيتية اللون ومعدات وأزرار في كل مكانٍ حوله. أزرار من كل الألوان والأشكال. بعضها بيضاء، وأخرى سوداء، مربعة الشكل، ودائرية وغيرها. رائحة شبيهة برائحة الغاز تملأ الطائرة. غرفة مظلمة، لا نوافذ حوله. أمامه مقبض باب يبدو وأنه مدخلٌ لكابينة القيادة. وهناك مجسم كالكبسول المتضخم

نائمٌ في المنتصف. كبسول أسود لامع مثبت من الأعلى بقطعٍ من الحديد.

فتح يوتا الباب فوجد نفسه في غرفة أخرى على جانبيه نافذتان بيضاويتان تطلاّن على الخارج. لم تقلع الطائرة بعد. بجانب كل نافذة كرسي أصفر بمسندتين وحزام أمان. بابٌ آخر أمامه لا بد أن خلفه كابينة القيادة فعلاً.

- إنها طائرة B29، تعرف جيداً أنه يجب علينا تفعيل القنبلة عند الاقتراب من هيروشيما.

- لندعو أن يكون الجو صافياً حتى نرى الهدف، وإلا سنتجه إلى كوكورا.

سمع يوتا حديث شخصين عند اقترابه من الباب أمامه، ففهم كل شيء عند سماعه اسم هيروشيما فوراً. أقلعت الطائرة، فنظر عبر النافذة ليرى لونها الفضي اللامع بشكلٍ مغرٍ بسبب الشمس الساطعة من حولها.

"إنها أجمل من أن تلقي قنبلة، لن يتوقعوا هذا منها". همس يوتا منبهراً، ملتصقاً بزجاج النافذة على الطرف الأيمن من الطائرة.

ظلّ مراقباً السحب حتى فُتح الباب الأمامي، فدخل ضابط كما يبدو ذلك من ملابسه، حاملاً قوابس ذات رؤوس حمراء. فُتح الباب التالي فاقترب الضابط من الكبسول النائم، حتى رأى قوابس خضراء مشابهة لتلك الحمراء على الطرف الأيمن من الكبسول. فرفعهما. فخرجا في يده. وضع مكانهما القوابس الحمراء وزمّ شفتيه إلى داخل فمه مرطباً إياهما. "كابتن، لقد فُعّل الولد الصغير، إننا جاهزون".

أخذ يوتا نفساً عميقا، متتبعاً ذلك الضابط. نظر إلى ساعته. إنها 8:10 صباحاً.

وجد يوتا نفسه بجانب رجل ذو قميصٍ زيتي، لم ينجح كيّه في إخفاء تجاعيده، بينما يضيق القميص من أطرافٍ يده ليصبح متماسكاً حول معصمه بقماشٍ قطني. على رأسه قبعة باللون نفسه. كان الزجاج يحيطهم من كل النواحي ماعدا جهة الباب من خلفهم، مطلين على السماء والسحب حولهم. إنه الكابتن.

بجانبهم ذلك الضابط، آخر من لمس ذاك الكبسول المدمر. مرتدياً سترة زيتية بلونٍ أدكن من سترة كابتن الطائرة وعلى رأسه

قبعة بيضاوية الشكل تشبه الطائرات الورقية. يجلس الضابط مولياً ظهره للزجاج على يسار الطائرة. بينما يجلس كابتن الطائرة والمقود أمامه وكل الغرف الأخرى خلفه. انشغل الضابط بكل الأزارير على جانبه الأيمن متراصة بجانب الباب الخلفي، بينما يكمن أكبر الأزرار على متن الطائرة بجانب المقود أمام كابتن الطائرة.

"لنفعل ذلك". مدّ الكابتن يده إلى ذلك الزر الأحمر الأكبر حجماً والأكثر إنارة.

صوت محرّك ضخم بدأ في العلو بالتزامن مع خفقان قلب يوتا.

الساعة 8:15 أُلقيت القنبلة.

وجد يوتا نفسه في المكتبة، كان متخبطاً. أراد أن يكمل المشهد، أن يرى ذاك الانفجار الرهيب، ليلمس جرح وطنه فيضغط عليه كي يوقف نزيفه. أغلق الكتاب، ووضعه مكانه بين الكتب، وجلس على أقرب كرسيٍ إليه. زفيرٌ وشهيق متنافسان، تاركان يوتا في خانة الاستسلام وحده.

تتقاطع الأقدار جميعها مع يوتا، فقد كان ولداً صغيراً عندما فقد والديه؛ بسبب هذا الكبسول المسمى بالولد الصغير.

وكما ينتهي يومه كل يوم على سريره، بين مخداته البيض المنتفخة، جلس يوتا ببشرته البيضاء كقطعة المارشميلو بين إخوتها.

"احكي لي قصة والديّ يا جدّي". تذكر يوتا قصة ما قبل النوم التي كان يحكيها له جدّه كل ليلة بينما يداعب شعيراته الخفيفة السوداء.

"أمك يا يوتا، تشبهك تماماً. عيناها سوداوان صغيرتان وتبدوان كقوسين، مثلك. كانت إذا ضحكت، تضحك عيناها معها. بشرتها بيضاء مثلك، وشعرها أسود اللون، أملس وخفيف، اعتادت على قصّه قصيراً، كانت تبدو كالأطفال تماماً بشعرها القصير. قبل سنوات، بينما كانت في يومٍ من الأيام تعمل في المستشفى، وصلها الخبر الذي جعلها تركض إلى هيروشيما. ذهبت لتبحث عن والدك. أما أنت فقد كنت معي تؤنسني، فأهجم عليك بالقبلات طوال اليوم. فقد كان عمرك سنة واحدة فقط. لم تستطع أن تفلت من قبلاتي". وبقوّة شديدة قبّله جدّه على جبهته.

"هكذا كنت أقبّلك يا يوتا".

تحسس يوتا جبهته، جالساً بين قطع المارشميلو بجانبه. "كم كنت حنوناً يا جدي". وابتسم.

***

ركضت إلى هيروشيما، باحثةً عنه بين الجثث. لم يكن هناك جثث. رمادٌ فقط هو ما تبقى من سكان هيروشيما. فقد احترقت جلودهم نتيجة إشعاعات قنبلة الولد الصغير، التي تقدّر بضعفي

حرارة أشعة الشمس. هي القنبلة التي لم تلمس أراضي هيروشيما، بل انفجرت على بُعد مسافة في الجو. إنها الحقائق التي صورتها الكاميرات الجوية، ولم يرها يوتا.

كانت والدة يوتا تعمل ممرضة في أحد مستشفيات كوكورا المعروفة. يوتا هو مولودها الأول والأخير. لم تستطع الرجوع إلى كوكورا وابنها الوحيد، بعدما لم تجد زوجها في ذلك الخراب. تفاقم شعورها بالمسؤولية وهي بين جثث هيروشيما. وغلبها جانب الممرضة فيها فظلت هناك. ولم الكذب؟ فقد أملت أن تجد زوجها هناك في يومٍ قادم.

وها هو يومٌ يمر يلحقه آخر دون أن تميّز رماده.

تخبّطت والدته في ساحة انفجار هيروشيما، دون استقرار لأيامٍ عديدة. ثم ظهر أناس يبدو أنهم كانوا في مهمة عمل. ويتحاورون باللغة الإنجليزية.

- يفجروننا ثم يتفحصوننا. ما هذا الاهتمام؟!

تذمرت والدة يوتا بين الجثث.

- إنها قنبلة تجريبية، يريدون فحص مدى نجاحها. هل تعتقدين أننا فئران التجارب؟ حدّثها ذلك الرجل الغريب.

- إننا فئران التجارب حقاً. فقد أتوا اليوم ليقيّموا ما حدث لنا.

- لم يتبقَّ من هيروشيما سوى رماد البشر.

- هناك القليل من البشر ليفحصوهم. بشر مشوهون، محترقون أو بأعينٍ ذابت جفونها فحُكم عليها بستارٍ معميّ إلى الأبد.

ساد الصمت بينهما بينما تابع الأمريكيون فحوصاتهم لكل ما يخص "الولد الصغير".

***

عاد إلى عمله، متشوقاً لنهاية الأسبوع. أصبح يعيش من أجل العطلة الأسبوعية.

"لم أعرفك، ألم تكن عدو العطلةِ بعدما انفصلت عنها؟".

ابتسم يوتا لزميله، لم يكن مستعداً للإفصاح عن سر تغيّره.

كانت حبيبته كل شيء بالنسبة إليه منذ العام الأول في دراسته الجامعية. اختطفت قلبه مذ رآها أول مرة وسط المدرجات. المدرجات الخشبية المطلية بلون الشاي مع الحليب، بينما يفصل بينهما ممرٌ متدرج أيضاً. كانت تجلس هناك في إحدى الصفوف الوسطى مجسدةً قطعة السكر الملقاة على كأس الشاي بالحليب. أمامهم في أقل تدرجات غرفة المحاضرة سبورة خضراء عليها بعض الأحرف باللون الأبيض. رائحة غرفة المحاضرات كالغابة تماماً. فرائحة الأشجار تستحوذ على كل جوانب المكان، بفعل تلك النافذة المستطيلة على يمين الغرفة المطلّة على الخضرة في

الخارج.

"هيَ ثانيةً!!". ردد يوتا فرحاً، غير مدرك لسبب فرحه. فقد رآها قبل قليل، خارج غرفة المحاضرة عندما وقع عن

ظهر دراجته الهوائية. فأتت هي، لتخدعه بالمساعدة، بينما تخطف قلبه.

- هل أنت بخير؟ ساعدته في رفع دراجته عن الأرض، وبدأ عقلها في الحديث. "طويل القامة، صغير العينين عريض المنكبين. يبدو بريئا في مظهره".

- نعم، لا تقلقي. شكراً.

همهم يوتا داخل نفسه "عيناها الواسعتان، شعرها الأسود الحريري القصير. قُصر قامتها، وكأن جزءاً منها قد قُطع، وزادها فتنة". ضحك يوتا، متجمداً في مكانه، سارحاً في النظر إليها جالسة هناك كقطعة السكر.

درسٌ، يتلوه درسٌ آخر. عيّن يوتا نفسه مراقب الصف الجديد المكوّن منها وحدها. حتى جلس بجانبها ذلك اليوم، وبدأت بينهما الحكاية.

حكايةٌ آخرها، إدانة سارق القلب بجُرم الرحيل.

***

دخل يوتا المكتبة كعادته تاركاً حظه بالمنزل. فلم يهتز أي كتاب حينها. أدرك يوتا ضعفه، أمام اختيار الكتب له. فقرر اليوم أن يختار هو الكتاب دون أن يناديه. فتح كتاباً عن الحرب ذاتها التي أفقدته من لم تسمح الفرصة له بالتعرف إليهما. وبدأ بالقراءة.

غارقٌ في التفكير، إنه الإمبراطور. لم تذق عيناه النوم من زمنٍ طويل. أربع سنوات من الحرب، واليوم هو أسوأها. هجوم الاتحاد السوفييتي على حدود اليابان، وانشغال الولايات المتحدة بإلقاء قنبلة تجريبية على هيروشيما جعله يوماً من أسوأ ما يكون.

دخلت عليه زوجته، كان جالساً على الأرض. أرضٌ مصنوعة من القش الخاص من نبات الأسل المريح، والذي تصنع منه أرضيات البيوت التقليدية المسماة "تاتامي". خشب طبيعي رائحته تملأ المكان، والجدران خشبية باهتة اللون دون أي طلاء يغطيها. يفصل بين كل قطعة خشبية خط عريضٌ من الخشب ذاته. سقفٌ سكري، ونوافذ ورقية تسمى "واشي" تضيء المنزل صباحاً.

اقتربت منه الإمبراطورة، بعينيها الصغيرتين عميقتيّ السواد وحاجباها الموشكان على الاختفاء، بينما يملأ رأسها الشعر الأبيض والرمادي بعذريته، دون ملامسة أي صباغ له.

إمبراطورة تلاشت فيها معالم كيد النساء، لتُظهر قوة أنوثتها الطاغية التي يكاد يسقط دونها إمبراطور البلاد. هي مصدر قوته وقوة الإمبراطورية.

قماشٌ قطني رملي اللون مقلّم ملفوفٌ عليها، خطوطٌ سوداء تكاد تختفي تقطع تلك الصحراء الرملية بشكلٍ مُمنهج. بينما يحيط خصرها حزام عريض قطني أسود اللون. إن ارتداءها لهذا اليوكاتا البسيط للنوم، يشبه تماماً إيمانها بالطبيعة والبساطة. انحنت وربّتت على كتف زوجها المهموم.

- ستنتهي الإمبراطورية. فالاتحاد السوفييتي على وشك احتلالها براً. والولايات المتحدة تعتقد أننا فئران تجاربها، وتريد إجبارنا على الاستسلام بهذه الطريقة البشعة. أفاض إليها الإمبراطور.

- لن ينتهِ أي شيء أيها الإمبراطور، فلنستسلم دون أي شروط لإنهاء الحرب الآن.

طال تفكير الإمبراطور، مرّ يومان وهو غارقٌ في فكرة الاستسلام. بينما نفد صبر الولايات المتحدة، فألقت القنبلة الثانية على ناجازاكي.

لم تكتفِ الأقدار بهذا القدر، فقد عانت الإمبراطورية سنواتٍ طويلة من الجوع والفقر والمرض. لم تنتهِ آثار القنبلتين بعد الانفجار، لكنها بدأت واستمرت في تدمير البشر لسنواتٍ طويلة. عانى سكان هيروشيما وناجازاكي من الإشعاعات، إلى أن وصلت المعاناة للمواليد الجدد، وجيناتهم.

كوكورا، المدينة الواقعة بين هيروشيما وناجازاكي. المدينة المحظوظة، بين الدمار من حولها. بدأ في ضربها، الجوع والفقر.

انطلق الملاحون من كوكورا للاصطياد. اتجهوا لذلك المخلوق الضخم، ليسد حاجة الإمبراطورية لسنينَ طويلة.

- يوتا.

ناداه جدّه قاطعاً قراءته لهذا الفصل المهم.

- يمكنك أخذ الكتاب وقراءته على مهلك. فهناك عمل في انتظارك غداً. نصحه جدّه.

- سآخذه.

انطلق يوتا إلى شقته المتواضعة.

"مخلوقٌ ضخم؟" علق ذلك في ذهن يوتا، لكن التعب قد تغلب عليه فنام.

نحن جميعاً ساكورا

(أزهار الكرز)

استعد يوتا للانطلاق إلى عمله. أقبل على الخروج من شقته المتواضعة، فاهتزّ ذاك الكتاب الذي بدأ بقراءته بالأمس. تبع صوت الاهتزاز، حتى رأى الكتاب بارزاً، ويهتز بشكلٍ جنوني. ركض إليه، وفتحه.

وجد يوتا نفسه وسط سفينةٍ عملاقة، سفينةٍ كُحليةِ اللون حديدية القالب. يعتلي لونها الكحلي بعض حروف الكانجي باللون الأسود على طرفيها من الخارج. الأمواج ساكنة، بينما تعم الفوضى متن السفينة.

حِبالٌ عريضة مكوّنة من شبكةٍ من المربعات المتقاطعة، متصاعدة من الأرض حتى تصل إلى أكبر بقعةٍ مرتفعة عن أرض السفينة. يستقر في تلك البقعة رجل ذو لباس رديء، مشيراً بيديه إلى الجهة اليمنى.

رجالٌ يركضون بحماس، تعلو أصوات ركضهم مع علو صوت رجلٍ يرتدي قطعاً من القماش لا ملامح لها، فيما يظهر جلده من بين الشقوق المتزاحمة عند ركبتيه. إنه ذلك الرجل ذو اللباس الرديء.

تلمع الأرض الخشبية المخططة بشكل جذّاب. "أعتقد أن الأرض لم تحتج يوماً أن تُغسل. فرذاذ البحر يقوم بذلك بشكلٍ جيد". أدرك يوتا في تلك اللحظات أن تفكيره في الأرض سيخطف منه رؤية ما سيحدث بعينيه، فعاد إلى الركض مع من يركضون.

تمايلت السفينة إلى الجهة اليمنى وكأنها تتبع إشارات ذلك الرجل ذو اللباس الرديء. فازدادت رائحة رذاذ البحر حتى شعر يوتا بالملوحة في بلعومه. ابتلع يوتا ريقه محاولاً إزالة مذاق الملوحة من فمه دون جدوى. تسارعت الموجات في الجهة اليمنى من السفينة مكونة زبداً من الأملاح الهائجة بفعل تمايل السفينة نحوها.

ظهر رجلٌ طويل القامة، كثيف الشعر، يرتدي بنطالاً كحلي

اللون وقميصاَ أبيض نظيفاَ لدرجةٍ غريبة. تبعه يوتا، لقد بثّ الرجل في نفسه انبهاراً وكأنه من كوكبٍ آخر. سارا حتى وصلا سلاحاً متكئاً على عامودٍ حديديٍ غليظ. يظهر من فمه رمحٌ حادٌ، ويتدلى من ذيل الرمح حبلٌ عريض ممتد إلى كومةٍ من ذلك الحبل الملفوف حول نفسه على الأرض.

دقائق، ثم توقفت السفينة.

عقد الرجل المبهر حاجبيه، فانكمش جلده حول عينيه ليرسم تجاعيد متراكمة على أطرافها في حين كان تركيزه على ذلك الهدف البعيد.

انطلق الرمح مسرعاً نحو الهدف، حتى سمع يوتا ذلك الصوت المفجع.

صوت انشقاق الصدر بحثاً عن القلب، دون مخدر. صوتٌ لم يتكرر على أذنه. صوتُ آهٍ مرتفعة، انقطعت عند انقباض الروح. "حوتٌ أزرق.". صرخ ذلك المبهر مشوشاً آلام يوتا. فعاد الجميعُ إلى الركض، أما يوتا فقد انكّب على طرف السفينة. لم يرَ يوتا سوى جلد الحوت الأزرق يخترقه ذلك الرمح، وحوله نزيف من الدم يخالط مياه البحر. تلوّى الحوت مع اختراق الرمح لجسده مظهراً إحدى عينيه فقط وبداية رأسه. عين دائرية كاللؤلؤ المتكور، بينما يزداد سوادها كلما أمعنت النظر إليها.

ركض كل من كان فوق السفينة نحو الحبل حتى يسحبوا الحوت لأحد جوانب السفينة. على الجانب الأيسر من السفينة وُضِع الحوت داخل شبكة من الحبال التي تشبه الحبال المعلقة تلك. نام الحوت في حضن الشبكة تلك دون حراك. تحركت السفينة عائدة إلى الميناء محمّلة بذلك الحوت الأزرق، بينما حمل يوتا الكثير من الآلام.

أغمض يوتا عينيه بشدّة محاولاً نسيان ذلك المشهد.

فتح عينيه، بين أثاث شقته وجدرانها. ارتمى يوتا على أريكته الوحيدة المقيمة في غرفة جلوسه. كان متعباً، أراد أن يتكوّر في أي ركنٍ من الشقة. فذاك المشهد وصوت الحوت المتألم لا زال يئنّ بين متاهات دماغه.

"تأخرت على العمل!" عاتب يوتا نفسه، عندما هاجمته ذاكرته بأنه يوم الاثنين وهو في بدلته الرسمية.

***

دارت عجلة الأسبوع، ببطء شديد، حتى وصل يوم الجمعة. يوم بداية العطلة.

رأى مجسم حوتٍ كبير يشبه ذلك الذي لم يغِب عن باله في طريق عودته من العمل. حوتٌ أزرق من الأعلى، أبيض ذو خطوطٍ طويلة من أسفله. منتفخةٌ بطنه وكأنه يخفي عالماً آخر بداخله. عيناه الصغيرتان كأنهما ذبابتان متخاصمتان تقفان على سطح ڤيلا ضخمة زرقاء. لا أسنان له، بينما يوجد مكانها شعيراتٌ عريضة كشعيرات فرشاة الشعر المهترئة. شعيراتٌ متلاصقة، كالعشاقِ في فصل الشتاء.

مدّ يوتا يده نحو البالين، شعيرات فم الحوت. حوت أزرق من فصيلة الحيتان البالينية. إنها حيتانٌ دون أسنان، يتواجد مكانها البالين. دخلت أصابع يوتا بين البالين فشعر بشيء من الدفء وكأن آلام الحوت وآلامه قد التأمت معاً.

نظر إلى جانب الحوت، فرأى أنها لوحة مطعمٍ فاخر، يضيّف زبائنه لحوم الحيتان.

"يأكلونه إذاً، ظننت أنهم يمتصون الزيوت من داخله فقط!". همهم يوتا، متبعاً الأسهم المُوصلة للمطعم الفاخر.

أمام بوابة المطعم، تقابلا. أعينهما معلقةٌ على لوحة المطعم التي يقيم فيها ذلك الحوت.

- الحوت، مخلوقٌ عجيب. ابتلع النبـي يونس ولم يأكله. لم يمسّ شعرةً منه، بل عاش بداخله سنواتٍ طويلة حتى خرج وأكمل حياته. لكن اليوم نحن من نأكله!

أسقطت ليلى كلماتها.

ليلى، الفتاة المحجبة بقطعة القماش الرمادية ذات الورود الحمراء. ليلى تلك الفتاة التي قد لمحها في مكانٍ ما، دون أن تلحظ ذاكرته.

- ابتلعه الحوت؟

سأل يوتا متعجباً. فجلست ليلى على طرف الرصيف الموازي للمطعم، ربّتت على الرصيف مشيرةً إليه بالجلوس.

- يونس نبـي الله، أُرسل إلى قوم نينوى في أرض الموصل. لكن قومه لم يؤمنوا، فغضب ورحل. رحل على سفينة بعدما أوحى إليهم بأن العذاب قادم.

- نبـي؟

تعجب يوتا من تلك الكلمة.

- النبـي هو من يرسله الله إلى قوم ليؤمنوا به. حاملاً رسالة من الله، وأخباراً لهم. والنبـي يونس، هو صاحب معجزة ابتلاع الحوت له. بعدما غادر دون إذن من الله غاضباً من قومه، يائساً من أن يؤمنوا. ركب سفينة مع عدد من الناس، لكن الرياح هاجمتهم فقرروا أن يخففوا من وزن السفينة. فكانت القرعة هي الحل. القرعة على إلقاء أحدهم في البحر.

حكت ليلى بكل بساطة وسط انبهار يوتا الواضح.

- إذاً ألقوا يونس؟

- كان قدراً ليونس. فألقوا به في البحر. لكن الله قد أمر حوتاً أن يلتقمه دون أن يمسّ شعرة منه. فاستقر يونس في بطنه حتى أخرجه.

- في بطن الحوت، لا أستطيع تخيل ذاك العالم المختلف داخل الحوت. أتخيّل أنه حوت أزرق حتى يتسع يونس دون أن يختنق. فالحوت الأزرق هو أكبر مخلوقٍ على وجه الأرض.

حلل يوتا قصة النبـي يونس مبحلقاً في لوحة المطعم.

- أعتقد أنه ذاك الحوت. حوتٌ أزرق فعلاً.

أشارت ليلى إلى ذاك الحوت المقيم في اللوحة.

انتفضت من ذاك الرصيف، وانطلقت نحو محطة القطار. لحقها يوتا.

- ألن أراكِ مجدداً؟

عَلا صوت يوتا متأملاً.

- ستراني إن شاءت الأقدار!

ابتسمت وسط ضجيج المحطة حتى أُغلق باب القطار.

نظر يوتا حوله، بقي ساكناً مكانه في بقعة الانتظار. بينما أخذ القطار ليلى ورحل.

***

ازدادت تقلبات يوتا على سريره، لم يستطع النوم ليلتها. ظلّ صوت الحوت يئن داخل أذنيه، والتواءاته مستمرة في عينيه. فتذكّر ما يشبه ذلك الإحساس.

"لا تقلق من ارتجاف الحبر على الرسالة. فإنني أتلوى قليلاً من الألم. طمئن يوتا، وأخبره أنني حاولت. حاولت أن أبقى لكن يبدو أنها أيامي الأخيرة". بعثت والدة يوتا مرسولها الأخير لجدّه.

على فراش الموت، كانت تصارع تلك الكيماويات التي تأصّلت داخلها. استمر بحثها عن حبيبها، والد ابنها ورفيق دربها، بين الرماد وظلال البشر في الشوارع حتى رحلت.

لم يجدوا غير الظلال النووية في شوارع هيروشيما، ولم تنبعث منها رائحته. رائحة حبيبها.

سنة من صراع المرض والكيماويات، حتى تركت هذه الدنيا وابنها الوحيد عند جدّه.

تركته ليرى الدنيا دونها.

"ضع يوتا في قلبك، اعتنِ به. يجب عليّ أن أعود بوالده. كيف لي أن أعود دونه؟ ماذا سيقول لي حينها. كيف يستقبلني بالمحبة وأنا التي لم أعثر على والده؟ سأعود به، وإلاّ كيف أعود؟". أسرّت لجدّه مشيرة إلى أنها قد تكون رسالة الوداع، حتى قطعت كلماتها المرتجفة ذلك الاحتمال بالرحيل.

هدأت أفكار يوتا، حين تذكر تلك الفتاة ذات الحجاب الرمادي، والورود الحمراء التي تشبهها. أو لعله يراها كذلك.

"لم أعرف اسمها، لم أعرف إلا حكاياتها العجيبة". انشغل يوتا بالتفكير بها، حتى سقط في النوم.

***

استيقظ يوتا من قيلولته بعد ليلة صراعٍ مع جفونه. ممتلئاً بالحماسة، متجهاً إلى رحلة استكشاف مجهولة. اقتحم المكتبة بخطواتٍ عنيفةً، وسيّر أصابعه على جميع الكتب فوق الأرفف وهمس لها بابتسامةٍ خبيثة. سلّم على جده ممتلئاً بالحيوية. وبدأ في الدوران. حتى قرر أخيراً أن يختار كتاباً ويقرأه، مستسلماً لهدوء الكتب اليوم. بقي متردداً في الاختيار، حتى همست بأذنه فتاة.

"أغمض عينيك واختار". إنها ليلى. ابتسم لها، فأشارت إليه بإصبعها بالسكوت. "نحن في المكتبة!". وانطلقت نحو أريكة في الزاوية وتحوّلت إلى دودة قراءة.

"كأنها أجمل من رأيته يقرأ!". حَرَس يوتا ملامح ليلى إلى أن سَلِم هروبها هذه المرة. سار حتى أوقف أصابعه عشوائياً على غلافٍ قاسٍ لونه أخضر، "أمراض الجلد". كان عنوانه.

"الجلد هو الأكثر حساسية في جسم الإنسان..." قرأ يوتا باكورة الجملة، ولم يستطع تمييز الكلمات من بعدها.

حاول فرك عينيه حتى احمرّتا، ثم فتحها في رواق أبيض الجدران يشتد بياضه مع انعكاس الإضاءة عليه. بجانبه بابٌ سماوي اللون يكاد يبيض من شدة بهتان لونه. رواق مستشفى تعم فيه رائحة المعقمات الكحولية المختلطة مع رائحة المسكنات، ذكّرت هذه الرائحة لسان يوتا بطعم مسكن اعتاد عليه كلما هاجمه صداع أو ألم.

- انتبهي جيداً، فإذا وقعت ذبابة على جلده، لن يسلم من ذلك.

قال الطبيب.

- أسكب عليه إذاً عصارة اليقطين فقط؟

- نعم، اسكبيه فقط. أرجوكِ لا تلمسيه.

كالجبن داخل شطيرةٍ كان يوتا، بين الطبيب والممرضة. تملّكه الفضول حينها، لرؤية ذلك المريض.

- لقد مكث داخل أحشاء الحوت لمدةٍ طويلة، حتى فعلت به الرطوبة كل ذلك. زيوت الحوت مهمة، لكن أليست صحة الإنسان أهم! كيف حشر نفسه داخل الحوت وبقي هناك مغمىً عليه دون دراية أحد؟!

قالت الممرضة.

- إنّ عملية إخراج الزيوت صعبة، توجب عليه أن يحشر نفسه داخل الحوت حتى يأتي بكل ما بداخله. لكن الرائحة القاتلة في أحشاء الحوت قويةٌ للغاية. أعتقد أنه جديدٌ على المهنة.

قال الطبيب.

- لم أشهد مثل هذه الحالةِ من قبل، لم تُذكر في الكتب أيضاً. هل ستساهم عصارة اليقطين فعلاً في علاجه؟

توتّرت الممرضة وهي تحاول تذكّر رحلتها الدراسية ومعلوماتها.

بدأت قطع الأحجية في الاقتراب من بعضها، بين طيّات دماغ يوتا. إلى أن ذكر الطبيب ذلك الرجل من جديد.

- أثق بشجرة اليقطينة. فنبـي الله يونس قد خرج من جوف الحوت، بهذه الحالة تماماً. فرزقه الله شجرة يقطينة حتى يستردّ أنسجته، وأصباغ جلده.

كاد يوتا أن يُصاب بالحول من سرعة تحرّك عينيه نحو اسم الطبيب. "محمد" كُتب على بطاقةٍ صغيرة على جيب معطفه.

تذكّر ليلى على الفور. "النبـي يونس، أعرفه. كيف تعرفه أنت يا محمد؟". حاور يوتا الطبيب مقترباً منه، لكن محمد تجاوزه دون وعي.

"هاها، نسيت أنه لا يمكنني محادثتهم. إنني مشاهدٌ فقط".

ضحكَ يوتا بشكلٍ عنيف، وكأنه ينتقم من ذلك الواقع الذي فرض عليه قوانين يستحيل عليه مخالفتها.

دخلت الممرضة عبر الباب السماوي بينما رحل محمد عبر الرواق إلى غرفة مجاورة ببابٍ مُشابهٍ تماماً للباب بجانبه. تردد يوتا في الدخول مع الممرضة، فلم يعتد اختراق الخصوصيات في بلدٍ متحفظ يحترم القوانين بشكلٍ ممل.

"لا يمكنني التمرد!".

ضحكَ يوتا بصوتٍ أعلى، فامتلأت أروقة المشفى بصدى ضحكاته.

"ألم تُوضع القوانين حتى نتمرد عليها". دخل يوتا خلف الممرضة إلى الغرفة. جدران سماوية اللون كلون الباب تماماً بينما يتوسط السرير تلك الغرفة ذات الواجهة الزجاجية المطلة على الشارع. لم يكن هناك مريضٌ بالداخل. بينما همّت الممرضة بترتيب السرير وتجهيزه وكأن مريضاً على وشك القدوم.

"هل يمكن أن يكون ذلك المريض الذي تحدثا عنه؟". سأل يوتا نفسه ممتلئاً بالفضول تجاه المريض ذاك.

- أهو نصٌّ مبهر إلى هذا الحد؟

سألته ليلى.

تلعثم يوتا محاولاً العودة إلى الواقع.

- أليس التنقل سريعاً؟

- أيّ تنقل؟

سألته ليلى.

- هل سبق أن انتقلتِ إلى ما بين السطور، ورحلتِ إلى عالم الكتاب.

- هل تقرأ رواية؟ ألهذا شعرتَ أنك داخلها؟

تسمّر يوتا، بعد إفصاحها بالجهل تماماً عمّا يحدث معه.

- ماذا تقرأين؟ هرب يوتا منها إليها، بذلك السؤال.

- أقرأ عن حظ هذه المدينة. حظ كوكورا.

***

حشودٌ من الناس تلتف حوله. حول مكعبٍ أسود يتوسطه شريط مذهب بحروفٍ من لغة لم يعرفها. التفّ يوتا، مع الحشد. مكعب يتوسط ساحة بلاطها أبيض ممزوج بالقليل من الرمادي. كان يوتا حافي القدمين لكن البلاط كان بارداً على عكس الأجواء الرطبة في المكان. ساحة واسعة تمثل الدور الأرضي بينما تحدّها أعمدة متقاربة بنفس لون البلاط تماماً من كل الجهات مكونة بوابات صغيرة متسلسلة حول الساحة تعطيها شكلاً شبه مستطيل. يعلوها طابق ثانٍ من المساحات الواسعة، بينما بقي منتصف الساحة حيث ذلك المكعب الضخم بلا سقف منفتحاً نحو السماء مباشرة.

- أين أنا؟ دغدغ يوتا أفكاره، حتى رآها.

- ليلى؟ ماذا تفعلين وأين نحن؟ رمقته ليلى كتلك اللحظة حين فصلت بينهم بوابة القطار، لكنها أكملت الدوران حول المكعب.

لحقها يوتا، كما يفعل دوماً. فاختفت. تبدو ليلى مختلفة هذه المرة بقطعة قماش أبيض اللون ملتف حول وجهها بإتقان بدون أي شعراتٍ متمرّدة. مرتدية عباءة بيضاء تشبه الفساتين الطويلة ذات الأكمام الممتدة حتى أصابع اليد. لم يظهر من ليلى سوى وجهها وكفّها.

- ليلى، ليلى! حاول العثور عليها بين الزحام، حتى شعر بثقلٍ على كتفه الأيمن. يدٌ رقيقة ارتكزت على كتفه.

نظر يوتا إليها، وجهها ملائكي بشكل مبالغ فيه بكل ذلك البياض الذي يغطيها.

- عليّ أن أعلمك عن حظ مدينتي. كما تعلمت عن حظ مدينتك. لن أرتحل عنك، حتى أعلّمك.

أركزت كلماتها مع يدها على يوتا.

شهيقٌ اخترق رئتي يوتا، متعرّقاً على سريره. "ماذا كانت مدينتها! كيف لا أعرف شيئا عنها، إلا حكاياتها". دغدغت يوتا أفكاره هذه المرّة، لكن النوم كان سلطان الموقف.

عاد يوتا إلى الدوران من جديد حول ذلك المكعب الأسود.

- إنها الكعبة. الكعبة هي بيت الله يا يوتا.

ظهرت ليلى من جانبه، مكملةً دورانها.

- الكعبة! لم يفهم يوتا ما تقوله.

- أتدري أن كل هذا كان وادياً خالياً من كل شيء. كان وادياً غير ذي زرع، معدومٌ من الناس والماء. لكنّ كل ذلك تغيّر، بعدما ترك النبـي إبراهيم ابنه ووالدة ابنه السيدة هاجر هنا. هيا بنا إلى الصفا والمروة لأريك أين تركهما.

توجهت ليلى ويوتا يتبعها إلى جبل الصفا، هناك جبلان يصل بينهما طريقٌ معبّد ببلاط

الساحة ذاته. جبلان كما هما لم يتحولا أو يتطورا. بينما كل ما حولهما عمار.

كان يوتا غارقاً في عينيّ ليلى وقصصها العجيبة التي لا تنتهي. تكتّمَ، منتظراً ختام كلامها الذي يبهره كل مرّة.

- النبـي إبراهيم هو أول الأنبياء. كان متزوجاً بامرأة اسمها سارة. لكنها كانت عقيماً. فوهبت له هاجر، أي أهدته فتاة.

- أهدته فتاة؟

سأل يوتا متعجباً.

- أهدته فتاة لتنجب له.

- كيف تقبل بذلك دون أن تغار عليه؟

سألها يوتا بكل عفوية.

- لقد غارت عندما أنجبت هاجر فعلاً، ولذلك أخذ سيدنا إبراهيم هاجر وابنه وأتى بهما إلى هنا. تركهما وسط الوادي مع تمرٍ وماء. لعل ذلك يقتل الغيرة بداخل سارة. تركهما هنا يا يوتا بين هذين الجبلين. مشيرةً إلى جبليّ الصفا والمروة.

- تركهما؟

تساءل يوتا.

- لقد أمره الله بذلك. لكن عندما نفد منهما التمر والماء، جنّت هاجر. أخذت تبحث عن الماء في كل مكان. فكانت تسعى هنا بين الصفا والمروة كما يسعى كل هؤلاء البشر.

نظر يوتا إلى الناس يأتون ذهاباً وإياباً بين الجبلين، ثم عاد بنظره إلى ليلى.

- إلى أن رأت السيدة هاجر جبريل يضرب برجليه الأرض، فخرج ماء عذب من الأرض اسمه زمزم.

- ومن هو جبريل؟

- هو ملك الوحي من الله، أرسله الله لهاجر كي يروي عطشها ذلك اليوم. وبعدها دبّت الحياة هنا. أتريد تذوق زمزم يا يوتا؟

تماثلت خطوات يوتا وليلى باتجاه إحدى البرّادات الحديدية على طرف الطريق ما بين الصفا والمروة ليشربا من ماء زمزم.

أخذ يوتا، كوباً وراء كوب حتى امتلأ تماماً. ولأول مرة تلحظ ليلى ابتسامته الواسعة،

لعلها لأول مرة تلحظ هشاشة قلبه.

استيقظت ليلى متعجبةً من ذلك الحلم.

"لماذا يوتا؟". تداخلت أفكارها، بينما استيقظ يوتا بالابتسامة نفسها تلك وطعم زمزم في فمه.

هانامي: الاحتفال بإزهار الساكورا

تحت ظلالها

اعتاد يوتا، الذهاب إلى المكتبة يومياً بعد عمله. واعتادت ليلى رؤيته في ذلك التوقيت. يفتقد اليابانيون الكثير من الحياة كما افتقد يوتا ذلك أيضاً. كانت حياته عبارة عن عمل، وأكل، وشرب ثم نوم، فقط. لم يستمتع حقاً بالحياة إلا مع حبيبته. اختفت حبيبته فأصبحت حياته مملة من جديد دون روح. حتى ظهرت ليلى.

صار موعدهم اليومي دون تخطيط. روحان تتراقصان في كل لقاء. روح ليلى ويوتا.

لكن اليوم، قرر يوتا أن يواعدها حقاً. موعداً مع سبق الإصرار والترصد.

- أيمكننا سرقة بعض اللحظات لشرب القهوة معاً.

سألها يوتا، هارباً من غرقها في القراءة.

- قهوة فقط؟ أشتهي شيئاً حلواً.

ابتسمت ليلى، ثاقبةً قلبه بتلك الكلمات.

- هناك كعكة تستقر في كوكورا فقط. هي الكعكة التي تأتين من أجلها إلى هذه الإمبراطورية حتى إنْ مضت سنواتٌ طويلة.

ابتلعت ليلى ريقها، وهرولت نحو باب المكتبة. رفرف قلب يوتا، وقد وجد منفذه إلى قلبها. قلب ليلى الذي فكّر طوال الليل في كيفية النفاذ إليه.

"كم هو مكانٌ لطيف". رددت ليلى متفحصةً ما حولها، متجسسة على طلبات الزبائن، والأطباق السائرة. الأرض مقسّمة إلى مربعات ما بين اللونين الأبيض والأسود. تُحمل الأطباق على أيادي نادلات يرتدين تنانير قصيرة سوداء وقمصاناً بيضاء بشكلٍ منسجمٍ مع المكان. يوجد عند المدخل ثلاجة زجاجية عريضة، ترتص بداخلها كعكات متشابهة بألوان مختلفة، لكن تجمع البرودة والضباب الناتج عنه على الزجاج يمنع رؤيتها بوضوح. رائحة الشوكولاتة الساخنة تجذب كل من مرّ بجانب المقهى، بينما يعتلي معظم الطاولات مشروب الشوكولاتة الساخنة فعلاً في أكواب بيضاء اللون، يعلوها خط أحمر اللون متناسبٌ مع طبقه.

"سأتولى مهمة الطلبات". طلب يوتا فانتظرت ليلى متشوقة وكأنها في انتظار طفلها

المستقبلي من المطبخ.

ذلك الطفل الذي ستبتلعه بمجرد رؤيته بتلك الشفتين المحددتين بالـ "لمى" ذلك الخط الأبيض الفاصل ما بين شفتيها وسائر وجهها.

وصلت الكعكة.

منتفخة كخدّ الطفل المنتَظر، لونها ورديّ وكأن خدّه قد احمرّ من الخجل. مسامات الكعكة الإسفنجية تبدو رقيقة، كمسامات الطفل تماماً. دقّ قلب ليلى، مع كل انحناءات الكعكة الملتوية. كأنها متاهة تلتف وتلتف حتى تصل مركز الكعكة حيث نقطة ازدحام الكريمة البيضاء.

قطعة، وقطعةٌ أخرى. لم تشعر ليلى بأيّ شيء يملأ معدتها. "خفيفةٌ على القلب! لا أشعر بأني قد أكلت أبداً!" انبهرت ليلى بتلك الكعكة الهوائية. تدخل كالهواء تاركةً مذاق الفراولة الممتزج مع زهرة الكرز على اللسان.

تأملها يوتا، تأمل ليلى وهي تلتهم قطعةً وراء أخرى. مراقباً شفتيها الورديتين المحددتين، ذائباً مع الكريمة داخل فمها.

وهناك تذكّر يوتا حبيبته.

- امممم كم هي لذيذة.

همهمت حبيبته.

- هل يمكنني التذوق؟

سألها يوتا.

- لا، أعلم أنك تذوقتها سابقاً. لا داعي أن تكرر التجربة.

اقترب يوتا من شفتيها فتذوق الكعكة عبرهما.

- لذيذة، كما أعرفها. شلّ لسان حبيبته في تلك اللحظة فرحاً بفعلته تلك.

"يوتا! ألن تأكل؟".

سألته ليلى، مخترقةً تلك الذكريات. نظر عبر شفتيها، محتاراً إذا ما كان بإمكانه التذوق هذه المرة بالطريقة نفسها. تنهّد، وأخذ يتذوق الكعكة من الطبق.

***

رحَلت ليلى في عطلة نهاية العام الدراسي. رحلت لترى مَن اشتاقت روحها إليهما. والدتها ووالدها، فـ "ليلى" وحيدتهما. تتذكر ليلى جيداً كل ما مرّت به عندما قررت المضي

بقرار السفر إلى الإمبراطورية واكتشاف التاريخ ونفسها عبر تلك الرحلة الطويلة. تذكرة ذهاب دون تاريخ عودة.

- ليلى، ما حاجتك لهذه الرحلة؟ قالت أمها.

- أريد أن أكتشف العالم يا أمي. سأكتشف نفسي من خلال ذلك أيضاً.

- وكيف ذلك يا ليلى؟ لا تُفقديني صواب-ي أنا وأبوك.

- أمي، حقاً لا تقلقي. أنت تثقين ب-ي ما الذي تغيّر؟

- أثق بك وليس بالعالم.

لم يعترض والد ليلى أبداً على تلك الرحلة. فقد رأى شغفها واحتياجها لذلك. كانت فتاة، خجولة تقرأ كثيراً دون مشاركة أي مما تعرفه مع من حولها. كانت بحاجة إلى تلك التجربة، لتنفتح على العالم. ولتقوى على مواجهة العالم وحدها لاحقاً.

- ماذا عن أهلك وأهلي؟ ماذا سيقولون وليلى تسافر وحدها؟

سألت والدة ليلى زوجها.

- لا عليكِ بالناس يا مريم. أنا يهمني ابنتي فقط. ليلى في حاجة لرؤية العالم، والاعتماد على ذاتها.

رحلت ليلى إلى مدينتها. المدينة التي عُمّرت من بعد زمزم، ويوتا على حاله. كل يوم تجرّه قدماه إلى المكتبة. يرفرف قلبه عند بابها كلّما أقبل، يتذكر ليلى ويمتلئ بالشوق إليها.

تسلل يوتا إلى المكتبة، باحثاً عن جدّه. فوجده هناك على كرسيه المعتاد بالقميص الأبيض ذاته، لكن بسترةٍ من الصوف هذه المرّة لونها أزرق مضيفة له روحاً شبابية بين كل الكتب من حوله.

- اشتقت إليك يا جدّي!

- اشتقت إليّ؟ أم إليها؟

- أأشتاق لغيرك؟

ضحك جدّ يوتا، حتى اختفت عيناه بين تجاعيد جلده الرقيقة.

- أرى عبرك ما بداخلك. كالزجاج أراك. إنك شفافٌ، أكتفي بالنظر إليك كي أفهمك. لقد تعلّقت بها.

انقطعت كلمات يوتا، أمام الخبير في أموره.

- سأصبّرك بالكتاب الذي تغوص داخله ليلى. "حظ كوكورا". علّك تجد رائحتها بين طيّات صفحاته.

انطلق جدّ يوتا، كالطفل بين أرفف المكتبة عائداً بأريج ليلى بين يديه.

- إنها رائحة ليلى بالفعل. ابتسم يوتا، مقرباً الكتاب نحو أنفه.

- كيف هي رائحة ليلى يا يوتا؟

سأله جدّه.

- كالثلج. كرائحة الثلج في الشتاء. تملأ رئتيّ ببرودة وانتعاش غريب.

***

استقر يوتا وسط سريره كعادته يحدّق إلى الجدار. إلى أن سمع ذلك الاهتزاز.

"أيرّن هاتفي؟ لا أتذكر أنني أصمتُّه". ساح باحثاً عن هاتفه حتى رأى حظ كوكورا يناديه.

سماءٌ برتقالية اللون، لم تزل الشمس مختبئة عنها. صباحٌ باكرٌ، لم يكتمل بعد. سفينةٌ أخرى، لكنّها مختلفةٌ هذه المرّة. لا يوجد من يتجوّل على سطحها. رائحة الملوحة المنتشرة ذكّرت معدته بسفينة صيد الحيتان تلك، فأحدثت داخلها ما يسمى غثياناً.

"أين هم أصحاب السفينة؟". تساءل يوتا، فأخذ يتبع أذنيه في البحثِ عن الركّاب. حتى وصل غرفة قاتمة أسفل السفينة، كانت أوجه من فيها صارمة وأذهانهم منشغلة. لكنّ يوتا كان هادئاً، متأقلماً هذه المرّة مع سفره المستمر عبر الزمن.

- سنكتب رسائلنا الوداعية الآن. فلنترك لأحبابنا قطعاً منّا. أمر ناغومو قائد الهجوم جنوده بذلك.

بدأ الجنود في قص أظافرهم ونتف بعضٍ من شعرهم، ليلقوه في الأظرف الوداعية المفعمة برائحة الملح والموت.

- تجهّزوا لانطلاق أول الهجمات على بيرل هاربر.

ترك ناغومو قائد الهجوم كلماته ومضى.

- بيرل هاربر؟

تذكر يوتا ذلك الميناء البعيد عن إمبراطوريته. إنه شرارة الحرب مع الولايات المتحدة.

الساعة 4:00 فجراً.

انطلقت 180 قاذفة قنابل من على متن السفينة. فانطلق يوتا مع ناغومو، بإحدى

الطائرات.

الساعة 7:02 صباحاً.

علم الولايات المتّحدة يُرفع عالياً في سماء هونولولو إحدى جزر الهاواي.

- ماذا يفعلون؟

تابع دُون أسطول قاذفات القنابل في سماء هاواي من على سطح سفينة أريزونا.

- شروق الشمس الأحمر على الطائرات! إنهم اليابانيون. عرف دون فوراً بأن شيئاً ما سيحدث. لكنّها العطلة الأسبوعية، والسفن غير جاهزة لأيّ حدث.

"تورا، تورا تورا" أرسل قائد الهجوم ناغومو كلمة السر. "نمر، نمر نمر".

أُطلقت أول شعلة ضوئية لتنفيذ الخطة الأولى. لم ترها بعض القاذفات. أُطلقت شعلة أخرى للتأكيد.

- ماذا عمّن رأى الأولى؟

سأل يوتا قائد الهجوم. فتجاهله كالمعتاد.

أطلقت الـ 180 قاذفة جميعها قنابلها، فاشتعلت هونولولو.

- لقد نفَّذَ من رأى الشعلتين الخطة الثانية!

أجاب القائد، تلقائياً.

الساعة 8:00 صباحاً.

أُلقيت قنبلة في قلب سفينة أريزونا، أضخم سفن بيرل هاربر. تدفّق الانفجار على مدى أربعة أدوار من السفينة، وبدأت الغازات في الصعود نحو برج بيرل هاربر. قفز البعض في الماء بينما ركض البعض محاولين الصعود للبرج إبلاغاً وطلباً للمساعدة.

تمزقت سفينة أريزونا إرباً إرباً، انفجر مخزن الذخيرة، واشتعل البحر بالنفط المحترق. سلِم دُون من الموت، لكنه كان مشتعلاً مع هونولولو. احترق وجهه، فقَد جزءاً من أذنه، وأصيب بحروق بالغة على كلّ منطقة تقع الأعين عليها.

استنجد دُون بسفينة اقتربت من سفينته، فرموا له حبلاً فعقده بأريزونا. صعد على الحبل، وبدأ في الزحف عليه حتى يهرب من الموت. لكنّ احتكاك جلده مع الحبل أبطأه، كان جلد دون ينسلخ مع كل احتكاك. ينسلخ كالجورب. بينما تتصاعد النيران من تحته.

الساعة 8:30 صباحاً. توقّف الهجوم. عاد يوتا مع ناغومو إلى السفينة.

مارس يوتا، دور التوأم الملتصق بقائد الهجوم، فدخل معه إلى غرفة الاجتماعات تلك في قاع السفينة اليابانية. فرأى تلك الوجوه الصارمة، الجدّية. "ظننت أننا عدنا منتصرين، ما هذه الوجوه!".

استغرب يوتا.

- لن نشّن أي هجمات أخرى. يكفي هذا القدر. فلنعد إلى الإمبراطورية منتصرين.

قرر ناغومو ذلك.

- وهل تعتبر هذا انتصاراً؟ لقد حطّمنا سفنهم لكن الولايات المتحدة لن تترك الوضع كما هو عليه.

أشار مستشار الحرب.

- نحن من هاجمنا دون سابق إنذار، لقد تأخرت رسالة الحرب، ووصلت بعد الهجوم.

- وصلت بعد الهجوم؟ سنغرق في الحرب إذاً.

- لن يهجموا الآن، فقد حطمناهم بشكلٍ جيد.

قال ناغومو.

- أي تحطيمٍ هذا؟ سيتم إصلاح السفن خلال أشهر. وسيسترجعون قوتهم بسهولة. كانت الخطة أن نعيدهم إلى الوراء عشرين سنة عن تطورهم العسكري بضرب المحطات النفطية والقواعد العسكرية. لم يحدث ذلك ياناغومو. نحن من سيتحطم الآن.

عم الصمت غرفة الاجتماعات.

لم يُسمع إلا صوت أنفاس الموجودين، بينما فاحت رائحة طلاء الخشب في تلك الغرفة، كأنها قد دُهنت قبيل الانطلاق.

وفجأة، عاد يوتا إلى غرفة نومه. "للأسف، نحن من ابتدأ هذه الحرب. ونحن من فقدنا الكثير إثرها".

***

- يوتا!

- ليلى!

ضحكت عينا يوتا، حتى اختفت بين صفاء وجهه.

- لقد حملت لك من مكّة، ما لا يمكن أن تجده إلا هناك. أتعرف ماء زمزم؟

- بالطبع، ذلك الماء الذي عمّرت مكة من بعده، أليس كذلك؟

- نعم، ثلّجته لك كما أحبه. لكن عجيبٌ معرفتك به؟ عجزت ليلى عن فهم معرفة يوتا، حيث كانت أَلِفَتْ جهله بكل ما يخص الأديان.

نظر يوتا إلى يدها حاملةً زمزمية حديدية متعرّقة، ممتلئةً بماء زمزم البارد كبرودة الثلج. تشوّق يوتا لتذوقه فنظر إليها كالطفل حتى خطف تلك الزمزمية بيده.

- انتظر، ألا تريد أن تدعو الله بشيء تتمناه؟

- أيمكنني فعل ذلك؟ في الحقيقة أنا لا أؤمن بهذه الخرافات.

- خرافات؟ إنها ليست خرافات يا يوتا. فنحن نشرب زمزم بنية ما نتمناه. ندعو ذلك من الله، وبإذنه يمكن أن يتحقق.

- رأيت الناس يدعون في المعابد والمزارات، لكنني أنكر ذلك.

- إذا دعوت الرب الحقيقي لهذا الكون، كيف تكون خرافات. وهو الذي خلق كل ما حولنا. ألا يمكنه أن يلبّي أمنيتك البسيطة؟

- ماذا سأتمنى إذاً. تمهّلي قليلاً.

- اطلب ما يتمناه قلبك. فكّر جيداً، إنها فرصتك! رمقته ليلى بنظرةٍ إنذارية لئلا يضيّع فرصته.

متذكراً أمنيته تلك التي تمناها في المزار رغم انعدام إيمانه بتحققها، تمناها مجدداً. لكنه اليوم، مقتنعٌ بما تقوله ليلى. شيء ما في قلبه يثق بالقصص تلك. إنها طمأنينة غريبة تغمره كلمّا أفضت له بالحكايا. أدار يوتا غطاء الزمزمية حتى انكشف زمزم أمامه، مثنياً بشمّه دون نتيجة مرضية حتى اقترب وجهه منه فشعر بالبرودة تصله. حرّك الزمزمية برفق، شعر بالماء وكأنه يناغشه. أغمض عينيه، داعياً. ثمّ ارتشف حتى غرق في ماء زمزم.

طيورٌ تطير على عين زمزم. طيورٌ بيضاء، متموّجة في التحليق مع نسمات الهواء، مصدرة نغمات متناسقة مع حركتها. بدا يوتا كالمنزلق من سريره عندما توقّف ماء زمزم عن التدفّق إلى بلعومه حيث أدرك عودته للواقع.

- شكراً ليلى! لقد رأيت مكة.

ابتسمت ليلى هذه المرّة وكأنها فهمت ما يقصده. لم تستغرب رحيله إلى هناك ورؤيته لذلك المشهد الذي طالما تخيّلته سراً.

- محظوظٌ يا يوتا، أخيراً عادت إليك ضالتك. تشققّ وجه جدّ يوتا بابتسامته.

- كيف حالكِ يا ليلى؟ اشتقنا، أو بالأصح اشتاق يوتا.

ضحكت ليلى، محمرّة الوجه. ضحك قلبها، مغمورةً بالمحبة التي تخبئها ليوتا.

- أنا من اشتقت، أستاذ ماشيما!

- يبدو أن يوتا كان منشغلاً ولم يشتق كثيراً. ماذا به لا يتحدّث؟ هل أعجبتك رحلة الأمس يا يوتا؟

نظر يوتا إلى جدّه، فأحسّ أنه يشير إلى رحلته إلى بيرل هاربر وكأنه يعلم جيداً ما حدث.

- رحلتي؟

- أقصد قراءتك، ألم تقرأ حظ كوكورا.

- قرأته، نعم نعم. ارتبك يوتا جاهلاً إذا ما كان يريد الإفصاح عمّا يعيشه مع كلّ كتابٍ يقرأه.

أدار الأستاذ ماشيما ظهره وعلى وجهه ابتسامةٌ غريبة. لكنّها لم تغب عن ليلى التي كانت تراقبه. عقدت حاجبيها، ولم تفهم ابتسامته التي تنم عن علمه بكلّ شيء.

- ماذا تمنيت إذاً؟

سألت ليلى يوتا.

- فلأحتفظ بذلك لنفسي.

- فلتفعل.

ألقت ليلى كلمتها محمّلةً بابتسامة حانقة.

- أتذكُر ظهورك في المكتبة فجأة، حتى استقررت معنا.

قالت ليلى.

- معنا؟ هل أنت صاحبة المكتبة آنسة ليلى؟

- أعدّ كذلك! فأنا أقضي هنا أغلب أوقاتي مع السيد ماشيما.

فهم يوتا صداقتها القديمة مع جدّه. فهم علاقتهما الحميمة بالكتب. لكنه لم يفهم لماذا لم تختر ليلى مكتبة أخرى للتعمق في تاريخ الإمبراطورية. ليلى الفتاة العشرينية التي أغرمت بالتاريخ حتى عثرت على كنزها، الأستاذ ماشيما. فظلّت بجانبه حتى تُشبع قريحتها منه. الأستاذ ماشيما المؤرخ والكاتب الفذ كان ولا يزال أسطورة هذه البلاد. يعلم يوتا أن جدّه كان كاتباً، لكن يبدو أنه كان يظنّهُ من المؤلفين ذوي الشأن الضئيل في البلاد.

الأستاذ ماشيما، المؤلف ذو القدرات الخارقة في قلب هذا العالم الرتيب. جدّ يوتا الذي له

يدٌ في الكثير مما يحصل ليوتا.

تذكّرت ليلى ذلك اليوم الذي أقبل يوتا عليهما لأول مرة منذ بدأت ارتياد المكتبة. سمعت كلمة "جدّي" تقُال للسيد ماشيما فالتفتت حولها فوراً. "يا له من حفيد محظوظ". رددت ليلى في نفسها ذاك اليوم. لكن حديثهما لم يطل حتى التفت الحفيد إلى كتابٍ ما، فالتفتت ليلى إلى كتابها. لكنّ عقلها ظلّ متعلقاً بحفيد السيد ماشيما، حتى سألته عنه.

"يوتا حفيدي الوحيد، بل ابني الذي كبُر بين جدران منزلي. إنه مهندس الآن، لكنني أشعر بمللٍه الشديد من الحياة. أشعر بذلك الملل إلى حد أنني لم أعد قادراً على الكتابة بسببه. فمشاعر يوتا دائما ما تتسرّب إليّ". حكى جدّه بكل أريحية، ولم يُعر ذلك انتباه ليلى. فدائماً ما يشعر الأهل بأبنائهم، لكن تسرّب مشاعر يوتا إلى جدّه مختلف.

تابع الأستاذ ماشيما حفيده، حتى شعر بالسعادة تغمره فاطمئن. لقد عاد يوتا إلى الحياة بعد رتابةٍ طالت. عاد متشوقاً، ضاحكاً فأعاد إلى جدّه الحيوية من جديد.

***

امتلأت ليلة يوتا بالأشواق لحبيبته "يوكاري". تذكّر حبيبته السابقة التي كاد ينساها مع الأحداث المستجدة في حياته. لكن صورة متدلّية من أحد الأدراج بجانب سريره كانت كافية لتفتح أشواقه من جديد. اقتحمت يوكاري حلمه، فظهرت متأنقة لتعانق ذراعها ذراعه بينما تجتاح أقدامهما ساحل البحر.

أفاق يوتا من نومه، متأرجحاً بين مشاعره. "إنني مشتاق، لكن الملل يتصدر لقاءنا!". شعر يوتا بذلك الملل الرهيب حينما تعانقا في الحلم. كان عناقاً بارداً مملاً، كشف ليوتا أحوال قلبه التي تبدّلت منذ زمنٍ تجاهها.

- لن أستطيع الاستمرار معك يا يوتا.

- لن تستطيعي الاستمرار؟ ماذا تقولين يا يوكاري؟

- أرى أنه من الأفضل لنا الانفصال. لا أرى فيك رجل أحلامي. لا أراك تستحق كل ذلك الوقت والمجهود. أفضّل الالتفات إلى عملي ومستقبلي حالياً. لا وقت لدي لعلاقتي معك. أنا آسفة يوتا!

- آسفة؟

ابتسم يوتا ابتسامة ساخرة خجولة.

- أمضيت معك أجمل أيامي الجامعية. تعلم ذلك؟ لكن ... لسنا ذلك الثنائي الأبدي.

لم يتحدث يوتا. لم ينطق. لم يعرف ماذا يقول. اكتفى بالصمت، حتى تفارقا هناك.

- هل قرأت حظ كوكورا إذاً؟ أثار ذلك فضول ليلى.

- لم أنتهِ منه بعد.

أجاب يوتا.

- فلتسرع إذاً، أريد استرجاع ممتلكاتي من جديد.

ضحكت ليلى ورمقته بنظرة مشاكسة للغاية.

بعد ذلك الاتصال الهاتفي، بحث يوتا عن الكتاب بشراهة حتى يسلّمها إياه فوراً.

***

بينما كان يوتا متمسكاً بـ "حظ كوكورا" أمام ليلى في المكتبة. انضمّ إليهم الأستاذ ماشيما.

- ليلى، احكي لي إذاً عن أسباب الحرب العالمية الثانية.

- عن دور اليابان فيها أستاذ ماشيما؟

- نعم عن الإمبراطورية بالتحديد. إنني أسمعك.

ابتسم لها الأستاذ ماشيما.

- أتمتحنها يا جدّي؟

سأل يوتا.

- طبعاً. ليلى ابنتي وتلميذتي. ولم أرَ قط من يشبهها في فضولها وعشقها لاكتشاف الحضارات والتاريخ. إنني حريص على أن تعرف كلّ ما تريد وبالشكل الصحيح.

- بالطبع سيكون جدّي كذلك ياليلى. هكذا هم المؤرخون.

- بل أعظم المؤرخين يا يوتا. تأملت ليلى الأستاذ ماشيما في تلك اللحظات، كأنه جدّها بالفعل، بدفئه وعظمته. لكنّها كانت كمن تودعه بنظراتها تلك.

- ليلى؟ أين تسرحين يا ابنتي؟

- الحرب العالمية الثانية. أنا معك أستاذ ماشيما. ثم شرحت ليلى.

- كانت الإمبراطورية قبل الحرب فقيرة دون أي موارد، مواردها هم البشر فقط، لذلك فكّر الإمبراطور في توسيع الإمبراطورية واحتلال بعض المناطق علّه بذلك يستولي على موارد تلك المناطق. فبدأ باحتلال الصين، وماليزيا والهند الشرقية. لكنه ظلّ قلقاً طوال تلك الفترة، فالولايات المتحدة لن تتحمل رؤية كل تلك التوسعات دون تدخل. وقد كان قلقه في محلّه.

- كيف يمكنها التدخل؟

سأل يوتا.

- إن الولايات المتحدة مسيطرة على مسارات المحيطات. وكان ذلك بمثابة السيطرة على حياة اليابانيين تماماً. فالمحيط أمامكم والتحكم به هو التحكم بتحركاتكم والضغط عليكم بمحاصرتكم.

تابعت ليلى.

- ألهذا هجمت اليابان على بيرل هاربر، بهذه الطريقة الفجائية؟

- كانت الهجمة وقائية بالفعل لئلا تتدخل الولايات المتحدة في الحرب. ولكنها كانت وقوداً، فأشعلت الحرب وأثارت نيرانها.

- هدف الحرب هو إضعاف الولايات وتدمير أسطولها ومحطاتها، لكنّ ذلك لم يحدث فعادت الولايات بكل قوتها لتعلن الحرب. فكانت نهايتنا الاستسلام من بعد الهجمة النووية.

قال الأستاذ ماشيما.

جلس يوتا إلى جانب ليلى في هدوء متأملاً ملامحها المتشوقة متمتماً في نفسه عن مدى حبّه لوجهها الملائكي المحفوف بحجابها تاركاً خصلات من شعرها الذهبـي متمرّدةً فوق جبينها.

- ما رأيك في الحرب تلك يا يوتا؟

سألته ليلى.

- لماذا علينا الاهتمام بالماضي والتاريخ. أؤمن أننا نعيش اليوم، فلنعشه إذاً.

- انظري يا ليلى إلى حفيد المؤرخ العظيم الذي تشيرين إليه كيف يفكر.

تذمّر الأستاذ ماشيما بلطفه المعتاد.

- أعتقد يا يوتا أنه يجب أن نعيش اليوم متسلحين بمعرفة ما حصل بالأمس. فالأحداث بين الزمانين مترابطة ولا يمكننا فصلهما.

لم يهتم يوتا بما تقوله ليلى حينها. فأشار لها برأسه على اتفاقه، إلا أنه لم يكن متفقاً معها على الإطلاق.

"كم أنت عنيدٌ يا يوتا". تمتمت ليلى في نفسها لمعرفتها بما يدور برأسه.

بتلات الساكورا تتراقص

طُرقات النهر معبّدة بصخورٍ ممتدة إلى الأعلى متلامسة مع أشجار الساكورا. طريقٌ محفوفٌ بالساكورا من طرفيه كأنه الطريق إلى الجنة. تتعانق أغصان شجر الساكورا عبر طرفي النهر في لقاء ينتصف النهر لتصبح السماء ساكورا. وهناك تقف ليلى على حافَّة النهر متأملةً عناق الساكورا الحميمي.

"تُزهر الساكورا حتى تصل ذروتها ثم تتساقط". حدثت ليلى نفسها.

هناك رمقت ليلى ورقة رمادية اللون، ملقاة على الأرض بجانبها. على سطحها صورة سفينة مغمورة داخل الماء، ومتآكلة بعض الشيء.

أخذت ليلى الورقة عن الأرض، وأخذت تقرأ السطور المكتوبة بجانب تلك الصورة. "اكتشاف مقر سفينة موساشي في باطن المحيط".

- سفينة موساشي؟ ألم تكن تلك السفينة المفقودة التي أغرقها الأمريكان في الحرب. إنها من أضخم سفن الحرب إطلاقاً. لقد فُقد الكثير إثر تحطمها وغرقها.

حدّثت ليلى نفسها، ثم أخذت تبحث عن هاتفها النقّال حتى تتصل بيوتا.

- يوتا، سأذهب إلى الفلبين.

- الفلبين؟

استغرب يوتا.

- نعم، لقد وجدوا سفينة موساشي في باطن المحيط أمام شواطئ الفلبين.

- لكنها على عمق 900 متر وأكثر. لن تستطيعي الوصول إليها غوصاً يا ليلى.

- كالعادة، اندفع دون تفكير في أي تفاصيل. حسناً.

أخرجت ليلى أفكار الغوص من أعماقها، لتدخل تلك الأفكار عقل يوتا. غاص يوتا في النوم، حتى رأى نفسه في العمق 900 متر داخل المحيط. مرتدياً بدلة الغوص السميكة السوداء، يعتليها خطان أبيضان على جانبي جسمه. وكانت قدماه كزعانف السمكة بينما يغطي وجهه صندوقٌ دائري زجاجي. أحسّ بثقلٍ على ظهره، فالتفت ليجد أنبوبة الأوكسجين الحديدية خلفه.

أخذ يوتا يغوص، حتى وجد تلك السفينة العملاقة مستقرّة في باطن البحر بكل فخر. يبدو أن السفينة أخذت تتقشر من الصدأ، أو لعلها من السنوات الطويلة التي مكثت فيها هناك بين الملوحة والظلمة. لا أسماك حولها، ولا أي شيء حيوي يحتفل بوجودها هناك.

اقترب يوتا، واقترب أكثر حتى استيقظ فجعاً.

"ما بها أفكار ليلى تتسرب إلي رويداً رويداً؟!". استغرب يوتا وللمرة الأولى يلحظ فيها مدى تأثره بقصص ليلى وأفكارها.

أسبوع واحد، حتى تبدأ الساكورا في التساقط. إنه الموسم العجول، موسم شجرة الكرز "الساكورا". تمايلت ليلى وهي تسير متجهةً إلى المكتبة فتمايلت معها أغصان شجر الساكورا التي تزيّن شوارع كوكورا كلّها. إن هبوب أيّة نسمة هواء خفيفة على أغصان الساكورا، تساقِط بتلاتها.

ضحكت ليلى، امتدّت يدها نحو بتلات الساكورا لتغازلها "بتلات الساكورا تتراقص!". غنّت لها مبتسمة.

"لم أشبع منكِ أبداً". حدثت ليلى تلك البتلات. نظرت حولها، الشارع هادئ ولا أحد يراقبها. لم تستطع مقاومة رغباتها. تسللت يدها نحو زهرة ساكورا فاقتلعتها.

"أعلم أنني أقتلك هكذا لكن ألا يقولون: ومن الحب ما قتل؟". أخذت ليلى تلك الزهرة الوحيدة وأخذت تشمها وتتأملها طوال طريقها وصولاً إلى المكتبة. وضعتها بجانبها بكل رقّة على الطاولة لكن ذلك لم يَحُلْ بينها وبين الزهرة، واستمرت في تأملها.

"للمرة الأولى أرى بتلات تخجل كل ذلك الخجل. حقاً تشبهين تورد الخدود عند الخجل".

فتحت ليلى دفترها وكتبت: "بتلات الساكورا، رقيقة بشكل مبالغ فيه. ألمسها بأصبعين. أصبع تحت البتلة وأصبعٌ فوقها. أحرك أصبعي عليها بشكل متناغم فأشعر بنعومة يصعب وصفها. أحرك أصبعي بشكلٍ دائري، وأغمض عيناي". فتحت ليلى عينيها فأغلقت الدفتر.

تُثلج السماء ساكورا

طُرقات النهر معبّدة بصخورٍ ممتدة إلى الأعلى لتتصل أغصان زهور الساكورا في السماء. لكن صباح اليوم مختلف، فالبتلات تراقصت حتى سقطت عن الأغصان. تساقطٌ متناسق على نغمات رقيقة كرقص الباليه على المسرح. تساقطت البتلات على النهر لتجعل منه نهراً أنيقاً وجذّاباً للغاية.

وهناك على طرف النهر تقف ليلى من جديد، تتابع موسم الساكورا عن قرب. وتتابع قصة حبّها له عن قرب. تحاول أن تفهم تلك الدورة العجيبة لمراحل موسم الساكورا.

"الحياة تجري، ونحن نجري معها. أترين البتلات؟ إنها تركض مع الماء بتناسقٍ عجيب. يتسارع الجريان فتتسارع، يتباطأ الجريان فتتباطأ معه. نحن البتلات يا صديقتي. نحن البتلات". قالت لها تلك المرأة اليابانية متأملةً النهر بجانبها.

ثلوجٌ كثيفة تتساقط، ثلوجٌ زهرية اللون. لون زهريّ خجول.

"السماء تُثلج ساكورا". هكذا فكّرت ليلى وهي تتأمل ذلك المشهد العظيم. إن الإمبراطورية مبهجة اليوم لدرجة أن تُثلج الدنيا الساكورا.

"أين ستسقطين أنتِ يا ليلى آخر رحلتك هذه؟ أين سيمضي بك النهر الجاري؟". في تلك اللحظات قررت ليلى أن وقت رحيلها من الإمبراطورية قد حان رغم جهلها بالوجهة القادمة. لكنّها أرادت سقوطاً أخيراً قبل الرحيل.

"قادمةٌ إليكِ إذاً". همهمت ليلى بحماس.

عادت ليلى إلى منزلها، مفعمة بالحيوية. حيوية الإقبال على مغامرةٍ جديدة. كم تحب ليلى البدايات الجديدة، لتكسر ملل حياتها الروتينية. بدأت في طيّ ملابسها المنكمشة على السرير والكراسي، فتحت الخزانة وبكل سلاسة حملت المعاليق بملابسها فطوّحتها على السرير. أخذت في طيّها حتى امتلأت حقيبة سفرها التي كانت منطوية في طرف الغرفة. أخذت أغراضها جميعاً، ثم ألقت نظرة على غرفتها التي احتوتها لشهورٍ طويلة هنا في كوكورا.

أخذت تودعها بطريقتها الخاصة، بتأملها فقط. حتى لمحت ورقاً فارغاً يناغشه الهواء القادم عبر النافذة، فتذكرت يوتا.

"يوتا، إنني راحلةٌ حتى أودع إمبراطورية اليابان بطريقتي. أريد أن أودعها من

ناجازاكي. أريد أن أرى مقر القنبلة النووية تلك التي جعلت من اليابان إمبراطورية للسلام. لم أستطع توديعك، هربت من وداعك لأنني عاجزةٌ عن مواجهة النهايات. لا أجرؤ إلا على البدايات".
قرأ يوتا تلك الكلمات والدموع تفيض من عينيه. ابتلع ريقه، حدّق إلى الورقة ولم يُرد أن يغلق عينيه حتى لا يواجه دموعه المتجمعة على أطرافها. أخذت يداه ترتجفان قليلاً حتى شعر ببردٍ خفيف يعبر جسده. احتضن الورقة، احتضنها بشدة حتى أغمض عينيه فتساقطت دمعاته كتساقط بتلات الساكورا على ذلك النهر الجاري. أخذ يتنفس رويداً، حتى أدرك تهاطل دموعه عبر وجنتيه وصولاً لرقبته.

وصلت إلى ناجازاكي عابرةً الكثير من المدن بقطار الطلقة. لم تغمض عينيها لحظة، كانت رحلة القطار هي ذلك الشريط الوداعي الذي يراه كلّ من يفارق الحياة. شريطٌ لم تستطع أن تقطعه، أو تفوّت منه لحظةً.

"جدّي، لطالما أردت أن أناديك جدّي. أتذكر حينما علمت بوجود يوتا في حياتك، لم أقل لك لكنني كنت في قمة الغيرة من ذلك الصبـي المحظوظ. يعيش في مدينةٍ محظوظة مثل كوكورا أيضاً. محظوظٌ يوتا. ومع كل تلك الحظوظ لا يزال بائساً، منتظراً من يشدّ يديه نحو السعادة.

جدّي، أنا اليوم في ناجازاكي مدينة التحوّل. أفقدتكم الحرب إيمانكم بأديانكم، لكنّها جعلت لكم وطناً آمناً يمكنكم فيه أن تشعروا بإنسانيتكم. لم أحدّثك يوماً عن ربّي. لكن يا جدّي، ربـي الله الذي يمتحننا بالمصائب حتى نتحول كما تحولت اليابان. يجدر بكم أن تؤمنوا به قبل أيّ شعبٍ على هذه الأرض؛ فقد تحقق لكم كل ما يُشعرنا بحقيقة الله. أحبّك! ولن أكتفي بالرحيل، سأظل أبعث لك مكاتيبَ مطوّلة.

لكن أستاذ ماشيما، هناك سؤالٌ واحدٌ لم أستطع محوه من ذاكرتي. لماذا كنت أشعر أنك تعلم جيداً ما يحصل ليوتا؟ أنه يبحر عبر الروايات والكتب إلى تلك العوالم؟ نعم حكى لي يوتا ذلك وكم تأكدت من ذلك حين رأيت ابتسامتك تلك. ابتسامة العارف بكل ما يحصل. قرأ الأستاذ ماشيما كلماتها مبتسماً، ابتسامة العارف تلك باحثاً عن قلمه حتى يُجيب مكتوبها.

تساقط بتلة الساكورا:

خمسة سنتيمترات في الثانية

"حفيدتي ليلى، لطالما شعرت بكل الحب نحوك. دعيني أحكي لكِ عنكِ. عن نظراتك البريئة، وجهك المريح وبشرتك المشعة. عن عينيك اللامعتين، بالمناسبة! تضيء عيناكِ ليلاً. أرى فيكِ حفيدة تمنيتها.

أنتِ ذكية للغاية، وقريبة إلى كل القلوب. فقد أحببناكِ جميعاً. أنا ويوتا. أنتظر دائما أخبارك.

يوتا، كم هو مرهقٌ يوتا. بالطبع أعلم كل ما يحصل له. فإنه أمرٌ وراثي يحصل معه ومعي. لم أطلعه على ذلك قط. لكنني أعلم جيداً كل ما يحصل معه. أتعلمين، إن ذلك ما يصبّرني على وحدتي. فأنا أعيش وحدي، دون أي شركاء. ولطالما أشعرتني تلك الهبة من الخالق بمغامرة الحياة وجمالها. فالكتب تختارنا، ولسنا من نختارها. كم هو جميلٌ أن يختارك أحد حتى وإن كان كتاباً.

أتمنى لكِ حياة سعيدة مليئة بالمغامرة! فبدلاً من الانتقال لعوالم الروايات والكتب مثلنا، انتقلي بجسدك وروحك وعقلك. كما أعرفك دائما، كوني ليلى".

الأستاذ ماشيما، جدّك.

لقد تسللت بتلات الساكورا

داخل حقيبتي!

"توضأت حتى أجرب الصلاة يا ليلى. نمت بعدها كأني لم أنم منذ دهر.

رأيت بالأمس نفسي في سفينةٍ ضخمة، بنية اللون، وسط حشدٍ من البشر. إنهم من حدّثتني عنهم يا ليلى. إنهم الأنبياء. ووسط كل ذلك كان هناك نورٌ ساطعٌ، كأن الشمس قد استقرت وسط السفينة. تحاورت مع ذلك النور، إنه الله.

* ملحوظة: هل تذكرين أمنيتي في المعبد وعند شرب زمزم؟ لم أخبرك بتلك الأمنية خاصتي.

في كل مرّة تمنيت أن أجد ماهية الحياة ومعناها. هل تعتقدين أنني سأجدها يا ليلى؟".

يوتا